بحث رقم ٦

منهج الزمخشري في تفسير القرآن الكريم

د. أبو سعيد محمد عبد المجيد*

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد!

فلاجرمَ أن القرآنَ الكريمَ هو البيان المعجز، وباعث نهضة علمية، ورائد فكر قويم؛ فنشأت على هامشه أبحاث وعلوم، وازدهرت به معارف وفنون، إذ شمر الأوائل من المسلمين عن سواعدهم يتعهدون بتفسير ألفاظه وبيان أحكامه، ففاضت بجهدهم ينابيعه، وأشرقت بإخلاصهم شمس معارفه وعلومه، وأعقبهم آخرون غيارى تناولوا نصه بالضبط إعجامًا وإعرابًا، بعد أن وجدوا في ألسن المسلمين زيغًا عن صواب قراءاته، وانحرافًا عن فصاحته، كما تناول اللاحقون القرآن بالقراءة والتفسير والإعراب.

ظل المسلمون الأوائل يفهمون القرآن الكريم على حقيقته وصفائه، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا في الدين شيعًا، وأحدثوا فيه بدعًا، وكانت فتن كقطع الليل المظلم، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام، ولا نجاة من شرها إلا بالتمسك بالقرآن الكريم.

وكان من بين المسلمين من أهمل هداية القرآن، وركب رأسه في طريق الغواية؛ فلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذي سلكه سلفه الصالح في فهم القرآن الكريم، والأخذ به؛ أخذ يتأول القرآن على غير تأويله، وسلك في شرح نصوصه طرقًا ملتوية فيها، تعسف ظاهر

* قسم اللغة العربية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

وتكلف غير مقبول، وكان السبب هو تسلط العقيدة على عقله وقلبه، وسمعه وبصره؛ فحاول أن يأخذ من القرآن شاهدًا على صدق بدعته، وتحايل على نصوصه الصريحة لتكون دعامة يقيم عليها أصول عقيدته ونزعته؛ فحرف القرآن عن مواضعه؛ وفسّر ألفاظه على تحمل ما لا تدل عليه، فكان من وراء ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير.

وكان بجوار هذا الفريق من المسلمين، فريق آخر منهم، برع في علوم حدثت في الملة، ولم يكن للعرب بها عهد من قبل؛ فحاولوا أن يصلوا بينها وبين القرآن، ويربطوا ما عندهم من قواعد ونظريات وبين ما في القرآن من أصول وأحكام وعقائد.

وقد تطور التفسير الذي ظهرت بواكيره منذ صدر الإسلام حتى ظهرت دراسات فذة وأعمال ناضجة على يد المفسّر القيرواني في أفريقيا، وعلى يد ابن جرير الطبري ثم ما تلاهما من دراسات الزركشي في برهانه والسيوطي في إتقانه وما بينهما ظهرت كتب وتفاسير كثيرة أسهمت قديمًا، وما زالت تسهم حديثًا في تجلية الفهم، وإيضاح ما يحتاج إلى توضيح من الكتاب الكريم.

يهدف هذا البحث إلى دراسة نشأة التفسير وتطوره من عهد النبي ﷺ إلى عصر الدوين، وبيان مدى الثقة بما وصل إلينا من آثار في التفسير، وبيان موقف العلماء في التفسير بالرأي الذي يعتمد على الاجتهاد، المستند إلى النصوص أكثر من اعتماده على أقوال السلف. كما يهدف إلى التطرق للشروط للتفسير بالرأي؛ لأنه لايجوز التفسير بالرأي إلا لمن كان أهلاً له، والعلوم التي يحتاج إليها المفسر ودراسة منهج الزمخشري في الكشاف ومصادر تفسيره والأمورالتي يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره.

ومنهجي في البحث وصفي واستقرائي ونقدي ويتم ذلك من خلال الرجوع إلى كتب التفاسير ولاسيما الكشاف والكتب التي تتعلق بمناهج المفسرين قديمًا وحديثًا. والله الموفق وهو نعم المولى ونعم النصير.

نبذة مختصرة عن نشأة التفسير وتطوره:

(١) التفسير في زمن النبي ﷺ وصحابته الكرام:

لاريبَ أنّ التفسيرَ مرّ بأطوار كثيرة حتى اتّخذ هذه الصورة التي نجده عليها الآنَ في بطون المؤلفات والتصانيف، بين مطبوع ومخطوط. ولقد نشأ التفسير مبكرًا في عصر النبي ﷺ. ولما

كان هذا الكتابُ معجزةً للنبي ﷺ وحجةً له على غيره يصدق ادعاءه الرسالة والنبوة؛ فكان طبيعيًا أن يفهمَ النبيُّ ﷺ القرآنَ جملةً وتفصيلاً، بعد أن تكفّلَ الله تعالى له بالحفظ والبيان ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بيانَهُ﴾ [القيامة: ١٧-١٩]. وكان صلّى الله عليه وسلم أول شارح لكتاب الله تعالى، يبين للناس ما نزل على قلبه، كما كان طبيعيًا أن يفهم أصحابُ النبي ﷺ القرآنَ في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة، ولا واردة؛ فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل والمشكل والمتشابه، وغير ذلك مما لابد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها[1]. صحيح أن الصحابة الكرام كانوا يفهمون الكثير من القرآن، ولكنه كان يشكل عند بعضهم فحادثة ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] أحد الشواهد على ذلك، ثم إن بعض آيات القرآن عامةً بحاجة إلى تخصيص؛ لذا فإن سؤال الصحابة النبيّ ﷺ كان يكشف لهم عن التخصيص، وعن بيان المجمل، وتوضيح المشكل، والمتشابه وغير ذلك، في حين كان النبي ﷺ مسددًا بالوحي لتبليغ نص القرآن، وفهمه القرآن، لذا كان النبي ﷺ محيطًا بكل تفسير وفهم للقرآن في محكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، إلخ؛ لأن الله تعالى اختصه بالرسالة وعليه أن يبلغها الناس فآتاه الله تعالى القرآن؛ لذا كان كلام رسول الله تعالى في تفسير القرآن، أو تخصيصه لعامه، أو تقييده لمطلقه من الدين وحجة على العبادة، إن لم يعلموا فيه كانوا مخالفين لهدي الله تعالى ورسوله[2].

(٢) تفاوت الصحابة الكرام في فهم معاني القرآن الكريم:

صحيح أن جيل الصحابة الكرام مشهود له على العموم بالخيرية المطلقة، خيرية الاستقامة على الدين، والخيرية في فهم الدين، بيدَ أن الباحث في تاريخ الصحابة رضي الله تعالى عنهم يجد تفاوتًا بين هذا وذلك في فهم معاني القرآن، بل قد يكون هذا النص غامضًا أو تلك الكلمة من النص غامضة يغيب عنه معناها وفهمها ويبين أحدهم له. والسبب أن الصحابي الواحد قد

[1] الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، ١: ٣٣.

[2] صالح، عبد القادر محمد، **التفسير والمفسرون من العصر الحديث**، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٤- ٢٠٠٣م، ص٨٣-٨٤.

تغيب عنه مفردة من مفردات العربية الكثيرة العدد، غير أن العربية بمفرداتها جميعًا لا تغيب عن مجموع العرب من الصحابة الفطناء، أما مجموع العربية فقد تغيب عن الصحابي الواحد[1].

أخرج أبو عبيدة في الفضائل عن أنس، أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]؛ فقال: "هذه الفاكهة قد عرفناها؛ فما الأب؟" ثم رجع إلى نفسه؛ فقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر".[2] وما روي من أن عمر كان على المنبر فقرأ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧]، ثم سأل عن معنى التخوف؛ فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشد:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْها تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النبعةِ السَّفِنُ[3]

عندئذ قال عمر ﷺ مقولته المشهورة المذكّرة المنبّهة لأهمية حفظ أشعار العرب لفهم الكتاب الكريم: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم؛ فإن فيه تفسير كتابكم"[4]. وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "كنتُ لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتُها"[5].

من هذا يظهر أن الصحابة ﷺ لم يكونوا على سويّة واحدة في فهم القرآن وبيان معانيه؛ فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملما بغريبها، ومنهم دون ذلك.

هذا إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان يعلّم الصحابة الكرام التلاوة والفهم ويُوجّه فهمهم ويصحّح إدراكهم لدلالات القرآن الكريم ومقاصده. وكان النبي ﷺ يبيّن المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرّفه أصحابه فعرفوه، وعرفوا سبب نـــزول الآيات، ومقتضى الحال منها منقولاً عنه. فقد رُوي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ

---

[1] الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، ١: ٣٤.

[2] **فضائل القرآن**، مخطوطة برلين لوحة رقم ٥٠، باب تأويل القرآن بالرأي وما في ذلك من الكراهية والتغليظ.

[3] الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات**، م. فرج الله الكري، ١٣٢٥هـــ، ٢: ٨٧- ٨٨.

[4] المصدر نفسه، ٢: ٨٨.

[5] السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م، ٢: ١١٣.

عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا"[1].

يتضح مما سبق أن الصحابة الكرام كان يختلف بعضهم عن بعض في فهم القرآن الكريم تبعًا لإمكانية كل منهم. وعليه فلا مجال هنا لما زعمه ابن خلدون من أن العرب جميعًا كانوا يفهمون القرآن جميعه إذ يقول: وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أسباب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمون ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه[2]. ولعل ابن قتيبة وهو ممن قدم على ابن خلدون بقرون عدة يدرك ما أوضحناه سابقًا إذ يقول: إن العربَ لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه[3].

مميزات التفسير في هذه المرحلة:

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:[4]

(١) لم يفسر القرآن جميعه، وإنما فسّر بعض منه، وهو ما غمض فهمه.

(٢) قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه.

(٣) كانوا كثيرًا ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً.

(٤) الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ؛ فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النُّزول.

(٥) ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله: نظرًا لاتحادهم في العقيدة؛ ولأن الاختلاف المذهبي لم يقم إلا بعد عصر الصحابة الكرام.

(٦) لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر؛ لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني.

(٧) اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءًا منه وفرعًا من فروعه، و لم يتخذ التفسير له شكلاً منظمًا.

---

[1] ابن تيمية، تقي الدين، **مقدمة في أصول التفسير**، ت: د. عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م، ص٣٦.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، ١٣٢٧هـ، ص٢١٤.

[3] ابن قيم الجوزية، **اعلام الموقعين**، ١: ٦١.

[4] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ٩٧-٩٨.

(٣) التفسير في عهد التابعين:

إن مرحلة التفسير الأولى التي بدأت في عهد الرسول ﷺ والصحابة الكرام هي التي أسست لعلم التفسير، وهذه الفترة انتهت بانصرام عهد الصحابة لتفتح الباب لعهد جديد، ومرحلة جديدة من مراحل تفسير القرآن، وهذه المرة عن التابعين ﷺ الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم، وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفي من كتاب الله اشتهر أيضا بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا في التفسير، ووضحوا لمعاصريهم خفي معانيه.[١]

وكان هؤلاء التابعون منتشرين في الأمصار الإسلامية فنشأت في مكة طبقة من المفسرين، وفي المدينة طبقة ثانية، وفي العراق ثالثة. وكان أعلام التابعين العلماء قد استمدوا علومهم من القرآن من الصحابة الكرام، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين وهكذا حتى وصل إلينا وبهذا صنف العلماء التفاسير كما فعل سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج؛ فكان ذلك توطئة أو إرهاصا لظهور عالم مفسّر كبير هو محمد بن جرير الطبري الذي يوشك المفسرون جميعا من بعده أن يكونوا عالة عليه.

مميزات التفسير في هذه المرحلة:

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية[٢]:

(١) دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات وذلك لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب.

(٢) احتفظ التفسير بطابع التلقي والتلقين، بيد أن هناك خلافًا واضحًا بينه وبين سابقه حيث غلب عليهم طابع الاختصاص فأهل كل مصر يعنون برواية مصلحهم من الصحابة أصحاب المدارس.

(٣) ظهور المذاهب التي أظهر كل من انتمى إلى مذهب تفسيرات تؤيد مذهبه.

(٤) ازداد الخلاف بين التابعين في التفسير على غير ما كان عليه الصحابة.

(٤) التفسير في عصور التدوين:

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدإ ظهور التدوين، وذلك في أواخر عهد بني أمية، وأول

---

[١] السيوطي، **الإتقان**، ٢: ١٢٣، وانظر ابن تيمية، تقي الدين، **مقدمة في أصول التفسير**، دمشق، ١٩٣٩م، ص٦١.

[٢] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ١٣٠- ١٣١.

عهد العباسيين. من المعلوم أن التفسير مرّ بمراحل من عصره الأول إلى العصر الحديث نوجزها كالآتي[1]:

أولها: التلقي والتلقين: فالصحابة الكرام يروون عن رسول الله ﷺ كما يروي بعضهم عن بعض والتابعون يروون عن الصحابة كما يروي بعضهم عن بعض بطريق الرواية. كان ذلك في عصر النبي عليه السلام والصحابة الكرام ومن عاصرهم من التابعين.

ثانيها: خطا التفسير بعد عصر الصحابة والتابعين خطوة ثانية، ذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ؛ فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث؛ فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طوف في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما روي في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين.

ثالثها: انفصل التفسير عن الحديث ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجة (ت: ٢٧٣هـ) وابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) وأبو بكر ابن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ) وغيرهم. وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابع التابعين.

رابعها: لقد وجد من تجاوز هذا فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين الأول دون أن ينسبوها لقائليها فالتبس الصحيح بالعليل وأصبح الأمر مشاعًا وأباح البعض لنفسه أن يورد أقوالاً من عند نفسه دونما أدنى تحر لصواب فيما يذكر.

خامسها: ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة، هي أوسع الخطا وأفسحها، امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصورًا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلي بالتفسير النقلي، وكان ذلك على تدرج ملحوظ في ذلك.

أنـــواع التفسير:

ينقسم تفسير القرآن الكريم إلى قسمين: (١) المأثور ويسمى تفسير الرواية والتفسير النقلي (٢) تفسير الرأي ويسمى الدراية والتفسير العقلي.

[1] المرجع نفسه، ١: ١٤٠- ١٤٥.

(١) تعريف التفسير المأثور:

يطلق التفسير بالمأثور على كشف معاني التنَزُّيل وبيان المراد من نصوص القرآن الكريم بما نقل عن الله تعالى – في القرآن نفسه – أو عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين ﷺ[1]. ومدرسة التفسير بالمأثور هي أول مدارس التفسير ظهورًا؛ لأن الرسول ﷺ كان يفسّر ما أشكل على الصحابة فهمه من القرآن الكريم، ولما كان الصحابة قد عايشوا الرسول ﷺ وحضروا نزول الوحي استغنوا عن كثير مما احتاج إليه غيرهم لفهم القرآن الكريم؛ فكان ما فسره الرسول ﷺ قليلاً جدًا.

وقد كانوا يفهمونه بسهولة ويسر؛ لأنه نزل بلغتهم التي كانت سائدة، وهي مادة أدبهم وكلامهم، وسبب إيمانهم أنهم سمعوا كلامًا يفهمونه بنظم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله مع حلاوته وتحريكه النفس، حتى وصفه المعاندون من العرب بأنه ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤]. فالصحابة الكرام أنشؤوا مدارس للتفسير في الأقطار الإسلامية التي هاجروا إليها، فتتلمذ عليهم التابعون، وأخذوا عنهم فهمهم وتفسيرهم؛ فكان التابعون أعلم بتفسير القرآن المأثور عن النبي ﷺ والصحابة الذين جاؤوا بعدهم، فيعد قيام مدرسة التفسير بالأثر على المعالم. وأهم معالمها تقوم على الآتي:

(١) تفسير القرآن الكريم بالقرآن:

فإن القرآن قد وردت فيه آيات مجملة، ثم فصلت في موضع آخر، كما نزلت آيات مبهمة ففسرت في موضع ثان، ثم إن في القرآن الكريم آيات يستدل على تفسيرها بنظائرها في مواضع أخرى؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١]. استدل بعض العلماء على كون البنتين إذا انفردتا بالميراث فلهن ثلثا التركة. وحسبوهما من ضمن النساء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

(٢) السنة النبوية المطهرة:

هذا هو الركن الذي لا يقوم التفسير بأي شكل من أشكاله بدونه، فقد كان الرسول ﷺ هو المبلّغ عن الله تعالى والقرآن هو معجزته ودستوره وبرنامجه الذي أنزله له الله لإصلاح

[1] الزركشي، بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ، ٢: ١٤٩، والسيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المشهد الحسيني، ١٣٨٧هـ، ٤: ١٦٨، والذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ١٥٢.

الإنسانية. وقد كلفه الله سبحانه وتعالى بتبليغه للناس فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال أيضا: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل:٤٤]. وكان الرسول ﷺ، يبلغ القرآن ساعة نزوله حتى يصل إلى أقصاهم، وإن نزل عليه شيء والمسلمون في غزوة أرسل من يبلغهم ما نزل إليه. "كما أرسل علي بن أبي طالب إلى المسلمين ليبلغهم سورة براءة، وكان أمير المؤمنين أبا بكر الصديق"[1]. وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إني قد أوتيت القرآن ومثله معه...»[2].

(٣) تفسير الصحابة الكرام:

الصحابة الكرام هم الذين اختارهم الله لاتباع رسوله، وحمل رسالته، وتبليغ شريعته، وقد اصطفاهم لذلك، ولذا فإنهم كانوا نموذجًا فريدًا تقتدي به الإنسانية، وتسير على هداه إلى يوم الدين، وقد وردت في فضلهم آيات كثيرة تشهد لهم بمجموعهم، وهناك آيات جاءت تشهد بفضل أفراد منهم، ومن الآيات التي تكلمت عن فضلهم جميعًا قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

الصحابة الكرام أعلم الناس بالقرآن الكريم بعد الرسول عليه السلام؛ لأنهم شاهدوا نزول الوحي، وعلموا ظروف النصوص القرآنية كل على انفراد؛ فيعلمون كل ما يحيط النصوص من ظروف. وهناك ظروف أحاطت بالنص القرآني لا سبيل إليها بالعقل أو النظر؛ فلابد من النقل فيها، وهي الأمور اللازمة لتفسير النص، ولايستقيم التفسير بدونها كأسباب النُّزول، وترتيب السور والآيات، وتعيين المبهمات في آيات الأحكام. ومثال مما جاء في الأحكام قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] فلايستطيع أحد أن يتوصل بأعمال الفكر إلى أي اليدين التي تقطع، وهل يستطيع أن يعلم مقدار المال الذي تقطع من أجل سرقته اليد...؟!

ولما كان من المستحيل التوصل بطريق الاستنتاج إلى ذلك؛ فإن جاء عن الصحابي فيه شيء، وإن لم يقل فيه قال رسول الله ﷺ: فإنه يأخذ حكم المرفوع[3].

---

[1] **تفسير الطبري**، ١٠: ٥٩.

[2] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، **الكفاية في علم الرواية**، ط دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص٣٩.

[3] آل جعفر، مساعد مسلم عبد الله، **أثرالتطور الفكري في التفسير في العصر العباسي**، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص٧٩-٨٠.

(٤) تفسير التابعين بإحسان:

يعد أصحاب مدرسة التفسير بالمأثور نتاج التابعين من قبيل التفسير بالمأثور. لقد تلقى التابعون عن أساطين التفسير من الصحابة ﷺ علم القرآن وتفسيره وتخصص بكل علم من مفسري الصحابة تلامذة من التابعين وتفرقوا في المدن والأمصار مع انتشار الإسلام، فكونوا مدارس تفسيرية تحمل كل منها طابع رائدها الصحابي وعلمه. فكان بمكة: مدرسة الإمام عبد الله بن عباس ﷺ، وبالمدينة المنورة: مدرسة الإمام أبي بن كعب ﷺ، وبالعراق مدرسة الإمام عبد الله بن مسعود[١].

والواقع أن ما جاء عن ثقات التابعين من القضايا التي ليس فيها مجال للاجتهاد كأسباب النـــزول، والنسخ وغيرها فإن رأي الثقة يؤخذ على أنه أخذه من الصحابة الكرام، وباعتباره ثقة فلا يمكن أن يكذب عليهم وإن لم يذكر مورده فيها[٢].

معنى التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسّر لعلوم اللغة ووجوه دلالتها ووقوفه على الأدوات التي يحتاجها المفسّر من العلوم النقلية والعقلية كأسباب النُّزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك.[٣] ويقول الذهبي: هو" عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النُّزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسّر"[٤].

موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلف العلماء في التفسير بالرأي، وانشعبوا إلى فريقين:

الفريق الأول: ويرى – في تشدد – أن التفسير بالرأي غير جائز وأن المفسّر للقرآن برأيه آثم ومتوعد بالنار. واستدل على ذلك بما يلي:

---

[١] ابن تيمية، **مقدمة في أصول التفسير**، طبعة السلفية، سنة ١٣٨٥هـ، ص٢٣-٢٤.

[٢] **أثرالتطور الفكري في التفسير**، ص٨٣.

[٣] أبو زهرة، الشيخ محمد، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي، ١٣٩٠هـ، ص٥٩٦.

[٤] **التفسير والمفسرون**، ١: ٢٥٥.

(أ) احتجّ من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] حيث إنه معطوف على المحرمات المذكورة قبله في الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ وقد صاغ المانعون دليلاً منطقيًا من هذا النص القرآني يقطع بتحريم التفسير بالرأي؛ فقالوا: إن التفسير بالرأي قول على الله تعالى بغير علم، والقول على الله تعالى بغير علم منهي عنه؛ فالتفسير بالرأي منهي عنه.

دليل الصغرى: أن المفسّر بالرأي غير متيقن من أنه أصاب مراد الله تعالى من كلامه، وقصارى أمره أن يقول بظنه، والقول بالظن قول على الله تعالى بغير علم.

ودليل الكبرى: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ المعطوف على ما قبله من المحرمات. كما استدل هذا الفريق على المنع بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، حيث أضاف سبحانه وتعالى تبيين القرآن الكريم إلى رسوله ﷺ ومنه يعلم أنه ليس لغيره- صلوات الله وسلامه عليه- شيء من التبيان لمعاني القرآن[١].

(ب) كما استدل المانعون من التفسير بالرأي على وجهتهم من السنة النبوية بقوله ﷺ: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢]. واستدل المانعون أيضًا بما ورد عن الصحابة والتابعين من إحجامهم عن الكلام في تفسير القرآن وتحرجهم من الخوض فيه بآرائهم. من ذلك ما رواه ابن أبي مليكة فقال: سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن تفسير حرف من القرآن فقال: "أي سماء تظلني وأي أرض تقلني، وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله؟". وفي رواية ابن كثير عن أبي معمر عن الصديق: "... إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"[٣].

كما روي عن سعيد بن المسيب أنه إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "إنا لا نقول في القرآن شيئاً"[٤]. كما روى الشعبي عن مسروق أنه قال: "اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله عز وجل"[٥]. وما روي عن الشعبي من أنه كان يقول: "ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن والروح والرؤى"[٦].

---

[١] السيوطي، **الإتقان**، ٤: ١٨٢.

[٢] أخرجه أبو داود والنسائي، وأخرجه الترمذي وقال: "حديث غريب"، ٤: ٢٦٨، طبعة السلفي بالمدينة المنورة.

[٣] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الشعب، ١٣٩٠هـ، ١: ١٦.

[٤] المصدر نفسه، ١: ١٦.

[٥] المصدر نفسه، ١: ١٦.

[٦] الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، طبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٢هـ، ١: ٥٢٥.

الفريق الثانـــي:

وفي الجانب المقابل لذلك نجد الفريق الآخر الذي يرى أن التفسير بالرأي جائز متى استكمل شروطه ومقوماته، ولا يمنع من جوازه ولا من الأخذ به ما ذكره المانعون من أدلة. فقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتي:

أولاً: بنصوص كثيرة وردت في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلاَيَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤] وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيدَّبرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب﴾ [ص: ٢٩] وقوله تعالى أيضا: ﴿وَلَو رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلمَهُ الذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ [النساء:٨٣]. ووجه الدلالة في هذه الآيات: أنه تعالى حثّ في الآيتين الأوليين على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلت الآية الأخيرة على أن في القرآن ما يستنبطه أولوا الألباب باجتهاده، ويصلون إليه بأعمال عقولهم. وإذا كان الله تعالى قد حثّنا على التدبر، وتعبدنا بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله تعالى بعلمه محظورًا على العلماء، على أنه طريق العلم وسبيل المعرفة والعظة؟. لو كان ذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم، ولما توصلنا لشيء، من الاستنباط، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالى[1].

ثانيًا: قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزًا، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل من البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد مايزال مفتوحًا إلى اليوم أمام أربابه، والمجتهد في حكم الشرع مأجور أصاب أو أخطأ، والنبي ﷺ لم يفسّر كل آيات القرآن، و لم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام[2].

ثالثًا: استدلوا بما ثبت من أن الصحابة ﷺ قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ، إذ إنه لم يبين لهم كل معاني القرآن بل بين بعض معانيه، وبعضه الآخر توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم[3].

رابعًا: قالوا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ فقال في دعائه له: «اللهم فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل»؛ فلو كان التأويل مقصورًا على السماع والنقل كالتنْزيل، لما

---

[1] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ٢٦٣.

[2] المرجع نفسه، ١: ٢٦٣.

[3] المرجع نفسه، ١: ٢٦٤.

كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به الرسول عليه السلام لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع. ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، وهذا بين لا إشكال فيه.

وقد ناقش هذا الفريق أدلة المانعين السالفة وفنّدها بما يلي:

(أ) إن التفسير بالرأي ليس قولاً على الله تعالى بغير علم؛ لأنه- مع التسليم بكونه ظنًا – فهو نوع من العلم؛ لأن الظن إدراك للطرف الراجح. ومن ثم تبطل المقدمة الصغرى. وحتى على فرض تسليمها فإننا نمنع الكبرى وهي: أن القول على الله تعالى بغير علم منهي عنه- بأن ذلك منوط بإمكان الوصول إلى الله تعالى اليقيني بوجود نص شرعي قاطع. أما إذا تعذر ذلك فلا ريب في مشروعية الاكتفاء بالظن استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...﴾ [البقرة:٢٨٦] وإلى قوله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: فيم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي؛ ضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»[1].

كما يرد على الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] على المنع من التفسير بالرأي بحجة إضافة البيان إليه ﷺ مما يفيد منع غيره من بيان معنى القرآن، فيقول أنصار التفسير بالرأي ومجيزوه:

حقًا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو خير من يبين معاني التنْزيل، ولا جدال في وجوب الالتزام بما بيّنه ﷺ في القرآن والاكتفاء بهديه عما سواه، ولكنه صلى الله عليه وسلم قد لحق ب بربه و لم يصل من بيانه وتفسيره للتنْزيل إلى الخلق إلا القليل فماذا عن تفسير أكثر التنْزيل؟ لا مناص إذا من الاستدلال بما فسّره على ما لم نقف له على تفسيره، وهنا يدخل الرأي بأدواته ووسائله، وهو ما أشارت إليه خاتمة الآية الكريمة: ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ من ثم حمل سند الاعتراض معه دليل الجواز.

(ب) كذلك رد المجيزون للتفسير بالرأي على مانعيه استدلالهم بالحديث الشريف: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»: فقال البيهقي: "هذا إن صح فإنما أراد- والله أعلم

[1] أخرجه أبو داود في **السنن**، ٣: ٤١٢، وأخرجه الترمذي وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي متصل".

– الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يسنده برهان فالقول به جائز"[1]. وكذلك رد ابن الأنباري على استدلال المانعين من التفسير بالرأي استنادًا إلى الحديث الثاني وهو قوله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم– وفي رواية: برأيه– فيلتبوأ مقعده من النار» فقال في الحديث الشريف له: " ...له معنيان: أحدهما من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله تعالى. والآخر: وهو الأصح– من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار"[2].

رأي الإمام الغزالي:

بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بأن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه– يقول: "فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله"[3]. كما قال قبل ذلك بقليل "إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعًا بالغًا، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه"[4].

رأي الراغب الأصفهاني:

بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما في مقدمة التفسير، يقول:"وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغلو والتقصير؛ فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرًا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، و لم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[5].

رأي الذهبي:

قال الذهبي: الرأي قسمان: قسم جار على موافقة كلام العرب ومناهجهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لاشك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي. وقسم غير جار على قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشروط التفسير، وهذا مورد النهي ومحط الذم[6].

---

[1] السيوطي، **الإتقان**، ٤: ١٨٣.

[2] المصدر نفسه،٤: ١٨٥.

[3] الغزالي، **الإحياء**، ٣: ١٣٧.

[4] المصدر نفسه، ٣: ١٣٦.

[5] مقدمة **التفسير الراغب**، ص٤٢٣.

[6] **التفسير والمفسرون**، ١: ٢٦٤.

رأي د. صبحي الصالح:

قال د. صبحي الصالح: إن العلماء قد اختلفوا في التفسير بالرأي. فمن محرم له ومن مجوّز، لكن اختلافهم يؤول في الحقيقة إلى أن المحرم منه هو الجزم بأن مراد الله كذا من غير برهان، أو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر لقواعد اللغة وأصول الشرع، أو تأييد بعض الأهواء بآيات من القرآن زورًا وبهتانًا، أما إذا كانت الشروط المطلوبة متوافرة في المفسّر فلا مانع من محاولته التفسير بالرأي. بل لعلنا لا نبعد إن قلنا: إن القرآن نفسه يدعو إلى هذا الاجتهاد في تدبر آياته وفقه تعاليمه، قال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد:٢٤][1].

يتضح لنا مما سبق أن لا حرج على التفسير بالرأي المستكمل لشروطه وضوابطه، بل أننا نستطيع أن نتجاوز مرحلة التوفيق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي إلى تقرير حقيقة موضوعية: وهي أن كلا النوعين مرتبط بالآخر ارتباطًا وثيقًا تدرج بعد عصر الصحابة حتى دخل بعد عصر التابعين في مرحلة التداخل والامتزاج حين أعوز فهم المنقول واستيعابه إلى وفرة مقومات الرأي وأدواته، وبرز تفسير الدراية العقلي إلى جانب تفسير الرواية النقلي والتحم به حتى في أمهات كتب التفسير بالمأثور كتفسير الطبري وغيره. فقام التفسير بالرأي بالدور المساعد على فهم المأثور إلى جانب قيامه بدور استقلالي فيما لم يرد فيه الأثر.

العلوم التي يحتاج إليها المفسّر:

لا يجوز لأحد أن يخوض في تفسير القرآن بالرأي إلا أن يكون ملما إلماما كليا بالعلوم الآتية[2]:

(١) النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

(٢) الأخذ بقول الصحابي؛ فقد قيل: إنه في حكم المرفوع مطلقًا، وخصه بعضهم بأسباب النُّزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

---

[1] **مباحث في علوم القرآن**، ط١٣، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١م، ص٢٩١- ٢٩٢.

[2] السيوطي، **الإتقان**، ٢: ٣٠٤، والزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ٢:١٥٦- ١٦١، والذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ٢٦٥- ٢٦٩، وآل جعفر، مساعد مسلم عبد الله، **أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي**، ص١٠٢- ١٠٣.

(٣) الأخذ بما يقتضيه الكلام، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل».

(٤) علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب"، ثم إنه لابد من التوسع والتبحر في ذلك؛ لأن اليسير لايكفي، إذ ربما كان اللفظ مشتركا، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

(٥) علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب؛ فلابد من اعتباره. أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سئل عن الرجل: يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته؟ فقال: "حسن فتعلمها؛ فإن الرجل يقرأ الآية فيعي بوجهها فيهلك فيها".

(٦) علم الصرف: وبواسطة تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: "ومن فاته المعظم؛ لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة؛ فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها. وحكى السيوطي عن الزمخشري أنه قال: "من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم...﴾ [الإسراء:٧١] جمع **أم**، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (**أما**) لا يجمع على (**إمام**).

(٧) الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلا. هل هو من السياحة أو من المسح؟

(٨) علوم البلاغة الثلاثة : (المعاني والبيان والبديع) فعلم المعاني، يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى. وعلم البيان، يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها. وعلم البديع، يعرف به وجوه تحسين الكلام. وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر؛ لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز. فمن لم يكن له علم بالبلاغة ردت تجارته في التفسير.

(٩) علم القراءات؛ فكثير من معاني القرآن والنصوص القرآنية يتوقف على نوع القراءة؛ لأن باختلاف القراءة أحيانا يختلف المعنى.

(١٠) علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز وما يستحل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة. ولولا ذلك لوقع المفسر في ورطات.

(١١) علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وغيرها.

(١٢) علم أسباب النُّزول: إذ إن معرفة سبب النُّزول يعين على فهم المراد من الآية.

(١٣) علم القصص؛ لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن.

(١٤) علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكم من غيره. ومن فقد هذه الناحية، ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

(١٥) تاريخ الجزيرة العربية، وأحوالها قبل الإسلام وبعد الإسلام، والظروف التي كانت سائدة بين العرب قبل الإسلام، وكيف أصبحت بعده؛ لأن القرآن عالج هذه الأوضاع فصحح الخطأ وأبقى السليم منها.

(١٦) العلم بالأديان السائدة في العالم قبل مجيء القرآن والإسلام؛ لأن القرآن عالج أفكارهم وناقشها، ودعاهم إلى تصحيح أوضاعهم بموجبه.

(١٧) علم أحوال البشر، فقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبين في غيره، وبين فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر.

(١٨) العلم لوجه الهداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم.

(١٩) العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام، وما كانوا عليه من علم وعمل، وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري:

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة أبو القاسم الزمخشري الإمام الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله. ولد في قرية من قرى خوارزم سنة ٤٦٧هـ، وفد بغداد، وسكنها ثم رحل إلى الحجاز حيث جاور بيت الله الحرام.

علم من أعلام الشريعة والأدب والبلاغة وعلوم اللغة جميعًا، وعلم الكلام، وصنّف فيها جميعا وأجاد وصنف في الحديث وكان شاعرًا مجيدًا. أهم تصانيفه الكشاف، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة، والمفصل. مات رحمه الله تعالى ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ[١].

الكشـــاف:

تفسير جليل يشهد لصاحبه لعلو المقام، وطول الباع في البلاغة والبديع وعلم الكلام. وقد ألّف هذا الكتاب في مكة وبدأ في تأليفه سنة ٥٢٦هـ، وفرغ منه سنة ٥٢٨هـ. إلى جانب العامل الديني الذي أصبح يسيطر على تأليفه في أخريات حياته فإن هناك عوامل أخرى دفعته إلى تأليف الكشاف. فقد كان علماء المعتزلة الجامعون بين الكلام واللغة يستفتونه في تفسير بعض الآي فإذا فسر طربوا وأعجبوا واشتاقوا إلى مصنف يضن هذا التفسير. ويسير على نهجه، ثم اقترحوا عليه أن يملي عليهم "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" فهم الذين أرادوا منه مادة الكشاف. ويبين من عنوانه أن غايتهم أن يفسر القرآن تفسيرا اعتزاليا يتضمن الوجوه المعنوية المحتملة لمعاني النص القرآني[٢].

مصادر التفسير:

لم نر الزمخشري يشمخ بمؤلف له شموخه هذا بالكشاف الذي يحق أن نعدّه ممثلاً لنضجه العلمي. ففيه يبدو الزمخشري رجلاً هضم التفسير النقلي ووعى ما أثر فيه، كما روى الحديث وأتقنه، وأحاط خبرا بالمسائل الفقيه ودقيق الخلاف فيها، وألّم إلماما واسعًا بالقراءات وفروق ما بينها، كما اطلع على مجموعة ضخمة من الشعر والنثر، ويبين فيه الزمخشري أيضا رجلاً لغويًا مقتدرًا ومتكلمًا منطقيا جدلاً وذواقة مرهف الحسي لجمال النص القرآني.

(أ) تفسير مجاهد (ت: ١٠٤هـ)[٣].

(ب) تفسير عمرو بن عبيد المعتزلي (ت:١٤٤هـ)؛ فهو ينقل عنه قراءات وتفاسير[٤].

---

[١] ابن خلكان، أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ، ٢: ١١٠، والسيوطي، طبقات المفسرين، ليدن، ١٨٣٩م، ٢: ٢١٦.

[٢] **الكشاف**، ١: ٣، ٢: ٥٧٠.

[٣] **الكشاف**، ٢: ٣٢٠.

[٤] المصدر نفسه: ٢: ٨٣، ١٣٨.

(ج) تفسير أبي بكر الأصم المعتزلي وكان معاصرًا لأبي الهذيل العلاف (ت: ٢٣٥هـ)، والزمخشري يروي عن الأصم ويرد عليه[١].

(د) تفسير الزجاج (ت: ٣١١هـ) وقد أفاد الزمخشري من تفسير الزجاج شيئين: أولهما التفسير اللغوي للقرآن وثانيهما مجمل التفسير النقلي الذي صنفه الزجاج وهذا هو البيان.

(هـ) تفاسير العلويين فهو يكثر من النقل عن علي بن أبي طالب وعن جعفر الصادق[٢]. وكثير غيرهم.

(و) تفاسير الفرق المعادية للاعتزال كتفاسير المشبهة والمجبرة والخوارج وتفاسير الرافضة والمتصوفة[٣]. وهو يسمي هذه التفاسير بالبدعية.

(٢) مصادر الحديث:

لم يرد في تفسير الزمخشري- صراحة – غير ذكر صحيح مسلم[٤]. وإن كان الكشاف منبئ أن صاحبه رجع إلى مصادر في الحديث غير صحيح مسلم؛ فمن عادة الزمخشري أن يسوق الحديث مسبوقًا بالعبارة (وفي الحديث).

(٣) مصادر القراءات:

كانت أمام الزمخشري في القراءات مصاحف قراء وأمصار مختلفة منها[٥]:

(١) مصحف عبد الله بن مسعود.

(٢) مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله.

(٣) مصحف أبي.

(٤) مصاحف أهل الحجاز والشام.

(٥) بعض المصاحف الأخرى.

---

[١] المصدر نفسه، ١: ٥٥٧.

[٢] المصدر نفسه، ٢: ١٠١.

[٣] المصدر نفسه، ١: ٤٢٢ و١٦١ و٤٩٢ و٥٣١.

[٤] المصدر نفسه، ١: ٤٧.

[٥] المصدر نفسه، ١: ٥٥، ٧٦، ١٠٠، ٤٦٢، ٢: ٣٨٧.

(٤) مصادر اللغة والنحو[١]:

(أ) كتاب سيبويه الذي يستشهد به كثيرًا بل يقدسه.

(ب) إصلاح المنطق ابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ).

(ج) الكامل للمبرد (ت: ٢٨٥هـ).

(د) كتاب الكتاب المتمم في الخط والهجاء لعبد الله بن درستويه (ت: ٣٤٧هـ).

(هـ) كتاب الحجة لأبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ).

(و) كتاب الحلبيات لأبي علي الفارسي.

(ز) كتاب المحتسب لابن جني.

(٥) مصادر الأدب[٢]:

(أ) الحيوان للجاحظ.

(ب) حماسة، أبي تمام.

(ج) كتاب (استغفرواستغفري) لأبي العلاء المعري.

(٦) مصادر الوعظ والأساطير[٣]:

(أ) بعض كتب الوعظ والتصوف، فهو ينقل أقوال المتصوفة الأول كشهر بن حوشب ورابعة البصرية وطاووس ومالك بن دينار.

(ب) بعض الكتب القصصية الأسطورية.

منهج الزمخشري في تفسير القرآن الكريم:

يذكر الزمخشري السورة باسمها ثم يتلوها بمكيها أو مدنيها، ويبدأ تفسير الآيات بذكر الكلمات، ومدلولاتها اللغوية مدللاً عليه بشعر العرب أو قولهم، وإن كان في الآية حكم شرعي مستنبط يذكره أحيانًا مختصرا[٤]. وهو لا يذكر الرواية بسندها ولا يذكر الرواية إلا في سبب

[١] **الكشاف**، ١: ١٣، ٩٤، ٢١٢، ٢١٧، ٣٤٥، ٤٧٥.

[٢] المصدر نفسه، ١: ١٢٥، ١٨٢، ١٨٩، ٢٦٢، ٢: ١٢٧،١٤٢.

[٣] المصدر نفسه، ١: ١٤٢، ١٦٨ــ ٣٢٦، ٢: ٢٣٧.

[٤] **الكشاف**، ٢: ١٤٠.

نزول أو ما أشبهه. وإن ذكر الرواية فلا يذكر سندها، ويكتفي بذكر الصحابي الذي رويت عنه. وله ثمانية جوانب في تفسيره: الجانب الأول: الذي نعني بإبراز تقاسيمه وتقاطيعه هو شخصيته بوصفه معتزليا مفكرًا إذ يتناول التفسير، والجانب الثاني هو شخصيته بوصفه مفسرا أثريا، والجانب الثالث شخصيته بوصفه عالمًا لغويا، والجانب الرابع شخصيته بوصفه نحويا، والجانب الخامس بوصفه عالمًا بالقراءات واختلافها، والجانب السادس شخصيته بوصفه فقيها، والجانب السابع بوصفه أديبا، والجانب الثامن شخصية الزمخشري بوصفه مربيا روحيا يستهدف صلاح المجتمع.

يغلب على تفاسير المعتزلة الطابع العقلي، والمذهب الكلامي، تبعا لقاعدتهم المشهورة "الحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبّحه العقل"[1].

والعقل مقدّس عند الزمخشري أيضا ويقدمه على السمع؛ لأن العقل قبل السمع والسمع منبه للعقل من غفلته، يقول عند الآية: ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥] فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لايصح إلا بعد الإيمان، قلت: بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل[2].

والعقل عند الزمخشري يسبق السنة والإجماع والقياس مادام يسبق السمع، يقول في الآية: ﴿وتفصيل كل شيء...﴾ [يوسف:١١١] يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي تستن إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل[3].

هذه إذن هي مرتبة العقل عند المعتزلة وعند الزمخشري، والعقل آلة الزمخشري حين يفسّر يجول بها في النص كاشفًا منقبا وهو لا يقنع بظاهر المعنى القرآني الذي لايعد شيئًا بجانب تدبره واستبطان معانيه ويقول هو عن تدبر القرآن:"وتدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يريد ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم

[1] Encyclopedie de I'Islam, Lede, 1913 Suiv 111, 841-7.

[2] الكشاف، ١: ٥٤٤- ٥٤٥.

[3] المصدر نفسه، ١: ٤٩٠.

يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لايحلبها ومهرة نثور لا يستولدها"[1].

النـــزعة الاعتزالية عند الزمخشري:

النـــزعة الاعتزالية من شخصية الزمخشري بوصفه معتزليا ولكنها الناحية العقلية الخالصة التي لاتمس مبادئ ولا أصولا اعتزالية، بل تدين أولا وقبل كل شيء بسلطان العقل وتستخدمه كآلة في التفسير لها شأنها. أما الناحية الأخرى من شخصيته بوصفه معتزليا فهي ناحية الاعتزال الصرف، وفيها يبدو الزمخشري مفسرا للقرآن نظرة عامة فيجعل الآي المناصرة ظواهرها للمذهب الاعتزالي محكمة وتلك التي تخالفه متشابهة ثم يرد المتاشبه إلى المحكم ليخضع تفسيرها للرأي الاعتزالي، وهذا النحو في التفسير هو ما يعرف بالتأويل يقول عند الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ [آل عمران:٧]: محكمات أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه متشابهات محتملات. ﴿هن أم الكتاب﴾ أي أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها. ومثال ذلك ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، و﴿إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٣]، و﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ [الأعراف: ٢٨] و﴿... أمرنا مترفيها ...﴾ [الإسراء: ١٦]، والنص من الكشاف[2]. ونلحظ هنا أن المحكم من الآي في رأيه بوروده قبل المتشابه فالآية: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ يعين ظاهرها المعتزلة على رأيهم في أن الله لا يُرَى. والآية: ﴿لايأمر بالفحشاء﴾ تظاهر رأي المعتزلة في عدل الله فهو لا يفعل القبيح ولا يأمر به، والآيتان بعد محكمتان أما الأخريان فمتشابهان.

انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ [النساء:٩٣]، نجده يجعل لهذه الآية أهمية كبيرة في نصرة مذهبه، ويتيه بها على خصومه من أهل السنة، ويندد بهم حيث يقولون بجواز مغفرة الذنب وإن لم يتب منه صاحبه، وبأن صاحب الكبيرة لايخلد في النار، فيقول مستغلا لهذه الفرصة المواتية للاستهزاء من خصومه السنيين "هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ما روي من

[1] الكشاف، ٢: ٢٨٣.

[2] المصدر نفسه، ١: ١٣٦.

أن توبة قاتل العبد المؤمن عمدا غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله تعالى في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلا، وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم». وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» وفيه: «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه». وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله». والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، وأتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد:٢٤][1].

انتصاره لمذهب المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال:

لقد تأثر الزمخشري برأيه الاعتزالي في حرية الإرادة وخلق الأفعال، ولكنه وجد ما يصادمه من الآيات الصريحة في أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فأراد أن يتفادى هذا التصادم ويعمل على الخروج من هذه الورطة الكبرى، فساعده على ما أراد، هذا المعنى الذي تمسك به المعتزلة ونفعهم في كثير من المواضع. وهو (اللطف) من الله تعالى، فباللطف منه تعالى يسهل عمل الخير على الإنسان، وبسبيله يصعب عليه عمل الخير. هذا (اللطف) وما يتصل به من (التوفيق) ساعد الزمخشري على الخروج من الضائقة التي صادفته عند ما تناول بالتفسير تلك الآيات القرآنية الصريحة في أن الله تعالى يخلق أفعال العباد خيرها وشرها، والتي يعدها أهل السنة سلاحًا قويا لهم ضد هذه النظرية الاعتزالية. ففي قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا...﴾ [آل عمران: ٨] نجد الزمخشري يستشعر من هذه الآية أن قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء؛ فمن أراد الله هدايته هداه، ومن أراد ضلاله أضله، ولكنه يفر من هذا الظاهر فيقول: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدنا لدينك، أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا"[2].

[1] **الكشاف**، ١: ٣٨١.

[2] المصدر نفسه، ١: ١٩٥.

حملة الزمخشري على أهل السنة:

إن المتتبع لما في الكشاف من الجدول المذهبي، ليجد أن الزمخشري قد مزجه في الغالب شيء من المبالغة في السخرية والاستهزاء بأهل السنة؛ فهو لايكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة؛ فتارة يسميهم المجبرة، وأخرى يسميهم القدرية، تلك التسمية التي أطلقها أهل السنة على منكري القدر، فرماهم بها الزمخشري؛ لأنهم يؤمنون بالقدر، كما جعل حديث الرسول ﷺ، الذي حكم فيه على القدرية أنهم مجوس هذه الأمة منصبا عليهم، وذلك حيث قال في التفسير قوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾ [فصلت:١٧]. ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ – وكفى به شاهدًا – إلا هذه الآية لكفى بها حجة"[١].

الاتجاه النقلي في تفسير الزمخشري:

(أ) الصورة الثانية التي يراها الزمخشري صورة مفسر أثري؛ فهو يجيء بالأسباب المعينة على تجلية النص وتفسيره، منها معرفة أسباب النُّزول، وهو قد يورد في تفسير سبب النُّزول ومناسبته مسندًا الرواية إلى أصحابها[٢]. وأحيانًا لا يعزو الرواية إلى أصحابها ويوردها غفلاً من رواتها[٣]. ونراه مرة ثالثة يورد الآراء في مناسبة نزول الآي مكتفيا بالعرض دون أن يفصل هو برأي[٤]. وقليلا ما نراه يفصل برأي بين آراء في مناسبة النُّزول[٥].

(ب) النقطة الثانية في التفسير النقلي هي مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن، وهي مسألة لها أثرها في التفسير كما أن لها خطرها عند ما يدافعون عن الإسلام كالمعتزلة ذلك أنها باب من الأبواب التي ولجها الطاعنون على الإسلام للتشكيك فيه، وللناسخ والمنسوخ حكمة يبديها عند الآية: ﴿إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون﴾ [النحل:١٠١]، فيقول الزمخشري: تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنها مصالح وما كان مصلحة

[١] الكشاف، ٢: ٣٢١.
[٢] المصدر نفسه، ١: ٤٦.
[٣] المصدر نفسه، ١: ٩٧.
[٤] المصدر نفسه، ١: ١٢٨.
[٥] المصدر نفسه، ١: ٤٨١.

أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته[1].

(ج) والزمخشري يفسّر القرآن بالقرآن تفسيرا ظاهريا لاتأويل فيه في الآي التي لا يمس ظاهرها أو باطنها الرأي الاعتزالي ولامبادئه.

الاتجاه اللغوي في تفسير الزمخشري:

(أ) صورة أخرى نلمحها من تفسير الكشاف عن الزمخشري، صورة العالم اللغوي؛ فهو يعرض اللفظ القرآني عرضًا عرفته العرب في معاني منطقها؛ لأن القرآن عربي ومعانيه معاني كلام العرب يقول في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ [البقرة: ١٧٨].فإن قلت: هلا فسرت (عُفِيَ) بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن أعفاه ومنه قوله عليه السلام: واعفوا اللحى. فإن قلت فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه فهلا جعلت معناه ممن محي له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقلة في مكانها والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقلة نابية عن مكانها، وترى كثيرًا ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أغفل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه وهذه جرأة يستعاذ بالله منها"[2].

(ب) وهو يسير على نهج اللغو بين الأوائل الذين كانوا يسمعون من العرب ومن سماعهم يفسرون كلام الله وهكذا فعل الزمخشري الذي طاف بأنحاء أرض العرب وصحاريها يقول في قوله تعالى: ﴿ونوحًا إذ نادى من قبل فاستجبنا له...﴾ [الأنبياء: ٧٦- ٧٧]. وهو نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي اجعلهم منتصرين منه[3]ز

(ج) والزمخشري لغوي ذو حاسة لغوية دقيقة انظر إلى قوله في لفظة ﴿تقشعر﴾ من قوله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم...﴾

[1] المصدر نفسه، ١: ٥٣٧.

[2] **الكشاف**، ١: ٨٨.

[3] المصدر نفسه: ٢: ٥٠.

[الزمر:٢٣] اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضا شديدًا. وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضمونًا إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال: اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل في شدة الخوف[١].

الجانب النحوي في تفسيره:

وأما عن شخصية الزمخشري بوصفه عالمًا نحويًا فهو حين يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لاينساق وراء صناعته النحوية كالنحويين فيحيف على جانب المعنى وإنما يجعل همه المعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابي فنراه يبين الأحكام النحوية وما وراءها من فروق معنوية فهو يعالج النحو القرآني من الناحية التي تخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه ويقول في قوله: ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون﴾ [آل عمران:١١١] مناقشا لم رفع ﴿ينصرون﴾، و لم لم تجزم وتأثر المعنى في الحالتين ثم يبين علام عطفت ﴿ينصرون﴾ ليدرجها في نسقها المعنوي يقول: فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت فأي حرف بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع نفي كان نفي النصر وعدًا مطلقا كأنه قال: ثم شأنهم وقعتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: فما الذي عطفت عليه هذا الخبر؟ قلت جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون[٢].

(ب) النحو عنده خادم للمعنى. يقول في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم ...﴾ [المائدة:١٠٦] إذا حضر ظرف للشهادة، وحين الوصية بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التي ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها[٣]. فإذا أخل الحكم الإعرابي بالمعنى رفضه. فعند الآية: ﴿... والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا...﴾ يقول أجاز

[١] المصدر تفسه: ٢: ٢٩٧.

[٢] **الكشاف**، ١: ١٦٢.

[٣] المصدر نفسه، ١: ٢٨٠.

الفراء أن يكون (بين ذلك) اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن... وهو من جهة الإعراب لابأس به ولكن المعنى ليس يقوى؛ لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة[1].

القراءات عند الزمخشري:

(أ) وقد استعان الزمخشري بالقراءة على التفسير الذي فهي تقوي منه وتلقي الضوء عليه. فيعضد تفسير الآية: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر...﴾ [البقرة:٢٢٦] بقراءة لعبد الله يقول: فإن فاءوا في الأشهر بدليل قراءة عبد الله فإن فاءوا فيهن[2].

(ب) والزمخشري يبين فرق ما بين القراءات من حيث اللغة إذ لذلك أثر في اختلاف معنى الآي، يقول في قوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس...﴾ [النحل:٧] قرئ بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها وقيل هما لغتان في معنى المشقة وبينهما فروق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شَقًّا وحقيقته راجعة إلى الشَق الذي هو الصدع وأما الشِق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد[3].

(ج) إن همّ الزمخشري المعنى القوي الذي تتضمنه الآي القرآنية ولذلك فالقراءة المفضلة عنده التي تحمل وراءها معنى قويا يخدم التفسير القرآني فيفضل الزمخشري القراءة المشهورة في قوله تعالى: ﴿فأنّ لله خمسَه﴾ [الأنفال: ٤١] لقوة المعنى وذهاب العقل في التقدير مذاهب مختلفة وهو يعرب الآية فيقول: ﴿فأن لله﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره فحق أو فواجب أن لله خمسه. ثم بعد إذ يورد قراءات في هذه الآية يقول: المشهورة آكد وأثبت للإيجاب كأنه قيل فلابد من ثبات الخمس فيه ولاسبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك كان أقوى لإيجابه من النص على واحد[4].

---

[1] المصدر نفسه: ٢: ١١٨.

[2] المصدر نفسه، ١: ١٠٧.

[3] الكشاف، ١: ٥٢١.

[4] المصدر نفسه، ١: ٣٧٦.

النَّزعة الأدبية في تفسيره:

والزمخشري كأديب تطالعنا شخصيته من ثنايا تفسيره فهو إن فسّر أديب ذواقة للمعنى وجماله. وللأسلوب وحلاوته وإن فضل قراءة فضلها لجمال معناها وأسلوبها وإن عرض للنحو عرض له عرض من يقدّر الجمال معنى ولفظًا من إحساسه الأدبي وتذوقه الجمالي للنص القرآني ما يأتي:

(أ) فهو يحيا بحسّه وروحه في ثنايا النص ثم يعود إلينا وقد لمح معاني نفسية استشفها من باطن النص من طول إلفه له يدير مثلا هذا النقاش الذي يقول فيه عند الآية: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام...﴾ [البقرة: ٢١٠] فإن قلت: لِـــمَ يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لايحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: ٤٧][1].

(ب) وهو يجيء بالشعر المضمن معنى الآي الذي يفسر مثلا آية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم...﴾ [النساء: ٢٤] يريد ما ملكت أيمانهم من اللاتي سبين ولهن أزواج في دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين وإن كن محصنات وفي معناه قول الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها و لم تطلق[2]

(ج) **وثقافته الأدبية** تدفع به أمام بعض الآي إلى أن يستطرد استطرادات أدبية، منها ما قد يخدم تفسير الآيات مثلا آية: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله...﴾ [النساء: ٣٧] وبنى عامل للرشيد قصرًا حذاء قصره فنم به عنده فقال الرجل يا أمير المؤمنين، إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحببت أن أسرى بالنظر إلى آثار نعمته فأعجبه كلامه[3].

---

[1] المصدر نفسه: ١: ١٠١.

[2] الكشاف، ١: ٢٠١.

[3] المصدر نفسه، ٢٠٦:١.

الاتجاه الفقهي في تفسيره:

الصورة التي تركها الزمخشري عن نفسه والتي سجلتها له كتب الترجمة صورة فقيه حنفي فهو يمدح القضاة الشارعيين في خوارزم وهم شافعية فيقول:

إني بدين ولائهم متشيع لهم ولست بشافعي المذهب[1]

ويقر بأنه حنفي المذهب يقول:

وأسند ديني واعتقادي ومذهبي إلى حنفاء أختارهم وحنايفا

حنيفيـــة أديانهـــم حنفيـــة مذاهبهم لايبتغون الزعانفا[2]

وهو فخور بمذهبه مادح لمن عليه يقول:"رضي الله عن العلماء الخاشين من الله وحسابه...جمعوا إلى الدين الحنيفي العلم الحنفي"[3].

(أ) والصورة التي نستبينها عن الزمخشري الفقيه في تفسيره هي صورة من وعي الآراء الفقهية فهو يعرضها عرضا دون أن يفصل برأي. مثلاً الآية: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر...﴾ [البقرة: ١٨٤] يقول فيها: اختلف في المرض المبيح للإفطار فمن قائل كل مرض؛ لأن الله تعالى لم يخص مرضا دون مرض أن يفطر فكذلك كل مريض...[4].

(ب) وقد يثير نقاشا فقيها يخدم تفسير الآية. مثلا الآية: ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ...﴾ [البقرة: ١٧٣]. فإن قلت: في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحلت لنا ميتتان ودمان؟ قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة ألا ترى أن القائل إذا قال أكل فلان ميتة لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد كما لو قال أكل دما لم يسبق إلى الكبد والطحال ولاعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لايأكل لحمًا فأكل سمكا لم يحنث وإن أكل لحما في الحقيقة قال الله تعالى: ﴿لتأكلوا منه لحما طريًّا﴾ [النحل:١٤] وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث وإن سماه الله تعالى دابة في قوله تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ...﴾ [الأنفال:٥٥]. فإن قلت: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت: لأن الشحم داخل في ذكر اللحم لكونه تابعًا له و صفة

[1] الزمخشري، **ديوان الأدب**، مخطوط بدار الكتب في ١١٩ ورقة تحت رقم (٥٢٩) أدب، ورقة ٨.

[2] ديوان الأدب ورقة ٧٨.

[3] الزمخشري، **أطواق الذهب في المواعظ والخطب**، مطبعة السعادة، سنة١٣٢٨هـ، المقالة الثانية والأربعون ص٥٢.

[4] **الكشاف**، ١: ٨٩- ٩٠.

فيه بدليل قولهم لحم سمين يريدون أنه شحيم[1].

اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن الكريم:

عندما يلقي الإنسان نظرة فاحصة على العمل التفسيري قام به العلامة الزمخشري في كشافه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية، كان في تبيين ما في القرآن من الثروة البلاغية التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله. والذي يقرأ ما أورده الزمخشري عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، يرى أن الزمخشري كان يحرص كل الحرص على أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه. وإنا لنكاد نقطع -إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان- بأنه لايوجد تفسير أوسع مجالا في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري[2].

كما تبين عندما تكلم عن قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة:٢]، فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التي تجوز في محل هذه الجملة من الإعراب، نبه على أن الواجب على مفسر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعاني ويحافظ عليها، ويجعل الألفاظ تبعا لها، فقال ما نصه:"...والذي هو أرسخ عرفا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا وأن يقال: إن قوله: ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ...وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة..."[3].

موقفه من الإسرائيليات:

إن الزمخشري مقل من ذكر الروايات الإسرائيليات وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ روى، المشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين. وإما أن ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة، أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب

[1] **الكشاف**، ١: ٨٦.

[2] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ٤٤٣.

[3] الكشاف، ١: ٩٢-٩٤.

يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به[1].

قيمة تفسيرالزمخشري وأقوال العلماء فيه:

وأما قيمة هذا التفسير فهو – بصرف النظر عما فيه من الاعتزال – تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، بما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته. وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا من جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم ولاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب والمعرفة بأشعارهم وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب. ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف قويًا جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلّق به قلوب المفسرين[2].

(١) رأي الشيخ حيدر الهروي:

قال الشيخ حيدر الهروي: إن الكشاف كتاب علي القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبهه في تآليف الآخرين. وبعد أن مدح طويلاً أشار إلى نزعته الاعتزالية وقال: ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة. منها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، وكتب في الطعن ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش. ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة – وهم الفرقة الناجية – بعبارات فاحشة؛ فتارة يعبرة عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد. وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار[3].

(٢) رأي ابن خلدون:

يقول ابن خلدون: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد؛ فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة.[4]

---

[1] الذهبي،**التفسير والمفسرون**، ١: ٤٧٧.

[2] المرجع نفسه، ١: ٤٣٣.

[3] خليفة، حاجي، **كشف الظنون**، طبعة أوربا، ٢: ١٧٦-١٧٧.

[4] **مقدمة ابن خلدون**، ص٤٩١.

(٣) رأي تاج السبكي:

يقول السبكي: "واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدرالنبوة كثيرًا، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله"[١].

(٤) رأي ابن المنير:

قال ابن المنير في حاشية الكشاف سماها (الانتصاف): "فانظر إليه كيف أشجن قلبه بغضًا لأهل السنة وشقاقا، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقا؛ فالحمد لله الذي أهّل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة؛ فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة[٢]. وقال أيضا:"ولو نظرت أيها الزمخشري بين الإنصاف إلى جهالة القدرية وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت من مزالق البدع ومزابلها – ولكن كره الله انبعاثهم – ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالدخول في أولي العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل"[٣].

يبدو لي أن تفسير الكشاف عالي القدر، وهو أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يفهم من التركيب اللفظي. وكل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع، لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين. ولكن نزعته الاعتزالية الظاهرة أدت إلى أن العلماء عدوه من التفاسير بالرأي المذموم[٤]. لأن هناك أمورًا يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره حتى لا يقع في الخطأ ويكون ممن قال في القرآن برأيه الفاسد وهذه الأمور على النحو الآتي[٥]:

(١) التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يحصل العلوم التي يجوز معها التفسير.

---

[١] الذهبي، **التفسير والمفسرون**،١: ٤٤٠.

[٢] **الانتصاف**، هامش الكشاف، ١: ٢٩٩.

[٣] المرجع نفسه، ١: ٢٩٨.

[٤] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ١: ٣٦٣.

[٥] المرجع نفسه، ١: ٢٧٥.

(٢) الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعمله إلاالله فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سرا من أسراره وحجبه عن عباده.

(٣) السير مع الهوى والاستحسان، فلا يفسر بهواه، ولا يرجح باستحسانه.

(٤) التفسيرالمقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعًا؛ فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته،ويرده إلى مذهبه بأي طريق أمكن، وإن كان غاية في البعد والغرابة.

(٥) التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من دليل، وهذا منهي عنه شرعًا، لقوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما تعلمون﴾ [البقرة: ١٦٩].

الخاتمـــة:

أعرض في الخاتمة خلاصة البحث وأبرز النتائج كالآتي:

(١) لم يفسر القرآن الكريم جميعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، وإنما فسر بعض منه وهو ما غمض فهمه، ولم يكن الاختلاف بينهم في فهم معانيه إلا قليلا.

(٢) ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله تعالى.

(٣) لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر؛ لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني.

(٤) دخل في التفسير في عهد التابعين كثير من الإسرائيليات، واحتفظ التفسير بطابع التلقي والتلقين، وظهرت المذاهب التي أظهر كل من انتمى إلى مذهب تفسيرات تؤيد مذهبه.

(٥) لقد بدأ تدوين التفسير في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد العباسيين.

(٦) مدرسة التفسير بالمأثور هي أول مدارس التفسير ظهورًا، وأهم معالم مدرسة التفسير بالمأثور تفسير القرآن الكريم بالقرآن، والسنة النبوية المطهرة، وتفسير الصحابة والتابعين.

(٧) انقسم العلماء في التفسير بالرأي إلى قسمين. قسم يرى أن التفسير بالرأي غير جائز وأن المفسر للقرآن برأيه آثم ومتوعد بالنار؛ لأن التفسير بالرأي قول على الله تعالى بغير علم، والقول على الله تعالى بغير علم منهي عنه فالتفسير بالرأي منهي عنه. وقسم آخر يرى أن التفسير بالرأي جائز متى استكمل شروطه ومقوماته، ولايمنع من جوازه ولا من الأخذ به ما ذكره المانعون من أدلة.

(٨) اشترط العلماء في تفسير القرآن بالرأي شروطا كثيرة يجب أن تتوفر لدى المفسر، ومن أهمها: الإلمام بعلوم اللغة والصرف والنحو والبلاغة والقراءات وعلم أصول الدين وعلم

أصول الفقه وعلم أسباب النـــزول وعلم القصص وعلم الناسخ والمنسوخ وغيرها.

(٩) تفسير الكشاف للزمخشري تفسير بالرأي واعتمد فيه على كتب التفاسير والأحاديث والقراءات واللغة والنحو والأدب والوعظ والأساطير.

(١٠) الزمخشري في الكشاف مفسر معتزلي مؤمن بالعقل مقدس له يجعله آلة عندما يفسر.

(١١) يقف الزمخشري أمام ظاهر بعض الآي التي يناصر معناها القريب المكشوف آراء المعتزلة ومبادئها فيجعلها محكمة وتلك التي يخالف ظاهرها أصول الاعتزال يجعلها متشابهة ثم يحاول بفنون محاولات أن يلين معنى تلك الآي المتشابهة لتطوع الاعتزال وتنصر مبادئه وهو بهذا يريد معاني الآي القرآنية كلها حول الاعتزال.

(١٢) هو ينتصر لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر، لذا يرى أن صاحب الكبيرة يخلد في النار إن مات بدون توبة كالذي قتل مؤمنا متعمدًا.

(١٣) لقد تأثر الزمخشري برأيه الاعتزالي في حرية الإرادة وخلق الأفعال. ويرى أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى، بل العباد هم الذين يخلقونها.

(١٤) لقد بالغ الزمخشري في السخرية والاستهزاء بأهل السنة والجماعة؛ فتارة يسميهم المجبرة، وأخرى القدرية.

(١٥) يلاحظ عنده الاتجاه النقلي في التفسير حيث يجيء بالأسباب المعينة على تجلية النص وتفسيره، منها معرفة أسباب النـــزول والناسخ والمنسوخ. وهو يفسر القرآن الكريم بالقرآن تفسيرا ظاهريا لا تأويل فيه في الآي التي لا يمس ظاهرها أو باطنها الرأي الاعتزالي ولا مبادئه.

(١٦) يلمح في تفسيره الاتجاه اللغوي؛ فهو يعرض اللفظ القرآني عرضا عرفته العرب في معاني منطقها؛ لأن القرآن عربي ومعانيه معاني كلام العرب.

(١٧) والزمخشري عندما يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لا ينساق وراء صناعته النحوية كالنحويين فيحيف على جانب المعنى وإنما يجعل همه بمعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابي، فنراه يبين الأحكام النحوية وما وراءها من فروق معنوية فهو يعالج النحو القرآني من الناحية التي تخدم تفسير القرآن.

(١٨) القراءة المفضلة عنده تلك التي تحمل وراءها معنى قويا يخدم التفسير القرآني فيفضل القراءة المشهورة لقوة العقل وذهابه مذاهب مختلفة.

(١٩) والزمخشري أديب ذواقة فهو يحيا بحسه وروحه في النص القرآني ثم يعود إلينا وقد لمح معاني نفسية استشفها من باطن النص.

(٢٢) يثير نقاشا فقهيا أمام الآية يخدم تفسيرها ويلقي الضوء على معناها.

(٢٣) إن تفسير الزمخشري أوسع مجالاً في الثروة البلاغية في المعاني والبيان والبديع التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سوره من مثله.

(٢٤) إن تفسير الكشاف كتاب عظيم في بابه، ولكن نزعته الاعتزالية وإساءة أدبه على أهل السنة والجماعة، أدت إلى أن العلماء عدوه من التفاسير بالرأي المذموم.

الاقتراحات والتوصيات:

أنا أقترح اقتراحات متواضعة كالآتي.

(١) ضرورة الجمع بين المأثور والرأي والاعتماد عليهما معا والإفادة منهما في فهم معاني التنـــزيل واستنباط وجوه التأويل؛ لأنه لا يجوز القول في التفسير بالعقل والتدبر، والرأي والتفكر دون السماع والأخذ عمن شاهدوا التنزيل بالرواية والنقل. وكذلك لايصح الاعتماد على المأثور فقط؛ لأن الرسول ﷺ لم يفسر القرآن الكريم كله.

(٢) تكوين لجنة خاصة تقوم باستقصاء كتب التفاسير القديمة والحديثة ثم تأليف كتاب شامل لها لكي لايضل القارئ ولا يتيه ولايقع في اضطراب في فهم مقاصد الشارع.

(٣) نبذ الاختلافات المذهبية والتنازعات الكلامية والسياسية عند تفسير القرآن الكريم.

(٤) يجب أن يكون المفسر مخلصا محايدًا لاينحاز إلى مذهب معين وتكون غايته الوصول إلى مقاصد الشارع.

(٥) إنشاء مجمع تفسيري يحاول الوصول إلى الاكتشافات العلمية الجديدة من خلال الآيات القرآنية.

(٦) ضرورة المحافظة على عالمية القرآن الكريم باستخدام الوسائل المتنوعة كالكتابة والنشر ووسائل الإعلام وغيرها.

(٧) ترجمة معاني القرآن وتفسيره بدقة بواسطة العلماء المتخصصين باللغة العربية واللغات الأخرى.

(٨) العمل على نشر اللغة العربية لغة القرآن الكريم في جميع بلدان العالم الإسلامي، وجعلها لغة الدين والعلوم الإسلامية، واللغة الثانية في التخاطب بعد لغة أي بلد إسلامي غير

عربي؛ ولأنهاأهم الأدوات لتفسير القرآن الكريم.

(٩) تفعيل دور الجامعات والمؤسسات التعليمية في التقريب بين المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن الكريم والاستفادة من تاريخ المسلمين ودراسته لإعادة الوحدة للأمة كما كان أسلافها.

ثبت المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم**، مصحف المدينة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٠٧هـ.

٢. ابن تيمية، تقي الدين، **مقدمة في أصول التفسير**، ت: عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.

٣. ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، ١٣٢٧هـ.

٤. ابن خلكان، أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ.

٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار الشعب، ١٣٩٠هـ.

٦. أبو زهرة، الشيخ محمد، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي، ١٣٩٠هـ.

٧. آل جعفر مساعد مسلم عبد الله، **أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي**، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

٨. الإسكندري، أحمد المنير، **الانتصاف من الكشاف على هامش تفسير الكشاف**، ط١، المطبعة العامرية الشرفية، ١٣٠٧هـ.

٩. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، **الكفاية في علم الرواية**، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د- ت).

١٠. خليفة، حاجي، **كشف الظنون**، طبعة أوربا.

١١. الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، دار الكتب الحديثة، ١٣٨١هـ.

١٢. الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، طبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٢هـ.

١٣. الزركشي، بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ.

١٤. الزمخشري، محمد عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط١، المطبعة العامرية الشرفية، ١٣٠٧هـ.

١٥. ـــــــــ، **أطواق الذهب في المواعظ والخطب**، مطبعة السعادة، سنة ١٣٢٨هـ.

١٦. ـــــــــ، **ديوان الأدب**، مخطوط بدار الكتب في ١١٩، ورقة رقم (٥٢٩) أدب.
١٧. السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م. وبتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المشهد الحسيني، ١٣٨٧هـ.
١٨. ـــــــــ، **طبقات المفسرين**، ليدن، ١٨٣٩م،
١٩. الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات**، م. فرج الله الكري، ١٣٢٥هـ.
٢٠. الصالح، د. صبحي، **مباحث في علوم القرآن**، ط١٣، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١م.
٢١. صالح، عبد القادر، **التفسير والمفسرون من العصر الحديث**، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٢. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مصطفى الحلبي، ١٣٧٣هـ.